

# بنية النص النثري في الأدب الجزائري القديم

الأساتذ: محمد تحريش  
جامعة وهران-الجزائر

## النثر الجزائري على عهد الحماديين :

و نحن نقدم على تناول هذا الموضوع، نطرح سؤالاً مهماً: ما محور علاقة هذه النصوص النثرية، على قلتها، بالحماديين على وجه الخصوص، و بالجزائر على وجه العموم، خاصة إذا انطلقنا من المفهوم التعبيري التكويني للأسلوب، على أنه يعبر عن شخصية الكاتب أو المرسل؟ . ومن نافلة القول، إن هذا النثر عكس خصوصيته و تفرد ، وفي الوقت ذاته انتماءه إلى الثقافة العربية.

لقد كان النثر ضرورة حياتية بالنسبة إلى الحماديين ، «فاحتياج الدولة إلى الكتابة في مثل هذه الموضوعات ، لتسيير شؤونها، يستوجب انتخاب كتاب نبهاء ذوي مروءة و حذق ، إن كانوا موجودين في الأمة، وهذا متوقع إبان نشأة دولة بني حماد، لأنهم لم يستقدموا كتابا ، فيما علم عنهم ، لأن مملكتهم كانت مزدهرة بالعلوم و الآداب ، وفيها فقهاء و أدباء » . (1)

لقد اتخذ النثر في هذا العصر اللغة العربية وسيلة في التعبير، كما اتخذ نظام الحكم اللغة نفسها لغة رسمية، ثم إن حمادا مؤسس الدولة الحمادية نشأ بالقيروان نشأة عربية اسلامية، درس الفقه و الحداد و علوم العربية(2).

ولعل هذه الثقافة هي التي وجهت الإنتاج الأدبي على عهد الحماديين هذا التوجه العربي، فقد اتخذ الحكام الحماديون لأنفسهم كتابا لتصريف الشؤون الإدارية للدولة ، «واتخذ الأمراء الكتاب ، وكان ديوان الإنشاء مصلحة من مصالح الدولة على أرقى ما يمكن تصوره من النظام ، ترتب له الدواوين ، و ينتخب له الكتاب من كل ذي قلم سيال و قريحة و قادة و بلاغة نادرة»(3).

و على الرغم من أن الدولة الحمادية استمرت قرنا و نصف من الزمن، إلا أن الوصول إلى نثرها ، أو رسائلها ، أمر صعب ، لضياح أغلب النصوص

---

(1)- أحمد بن محمد أبو رزاق 1979 الأدب في عصر دولة بني حماد 173 الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.

(2)- ينظر لسان الدين بن الخطيب 1964 أعمال الأعلام فيمن بويق قبل الاحتلال من ملوك الإسلام.

71-85 القسم الثالث. تح. أحمد مختار العبادي. محمد إبراهيم الكتاني- الدار البيضاء

(3)- موجز التاريخ العام للجزائر 267.

مع ما ضاع من تراث ثقافي وفكري. وهذا ما دفع أحد الدارسين إلى القول : « بحثت عن الرسائل الفنية ظانا أن أعثر عليها اعتمادا على بعض الأمراء و الوزراء ، لكنهم لم يدونوا نصوصها ، فحرمونا منها مختارين ، أو مضطرين لعدم تمكنهم منها » (4) و مثل هذا الزعم يدفع إلى اليأس و القنوط ، و يجعل عملية الوقوف على خصائص هذا النثر أمرا محفوفا بالمخاطر ، إن لم يكن مستحيلا ، لأن أغلب المصادر التي اهتمت بهذه المرحلة أشارت إلى وجود نصوص إبداعية ، ولكنها لم تقيدها ، فابن الأثير ، على سبيل المثال ، أشار إلى وجود ثلاث رسائل سلطانية (5) واكتفى بالإشارة و التلميح دون التقييد .

1- و يبدو أن من أهم نصوص هذه الفترة ، نص لأبي عبد الله محمد الكاتب المعروف بابن دفرير ، و الذي جعله صاحب الخريدة أحد كتاب الدولة الحمادية ، المتصرفين في الكتابة السلطانية ، و أورد له رسالة كتبها عن سلطانها يحيى بن العزيز الحمادي ، وقد فر من مدينة بجاية أمام عسكر عبد المؤمن يستنجد بعض أمراء العرب بتلك الولاية .

### نص الرسالة .

« كتابنا و نحن نحمد الله على ما شاء وسر ، رضى بالقسم ، و تسليما للقدر ، و تعويلا على جزائه الذي به من شكر ، و نصلي على النبي محمد خير البشر ، وعلى آله وصحبه ما لاح نجم بسحر ، و بعد ، فإنه لما أراد الله أن يقع ما وقع ، لقبح آثار من خان في دولتنا و ضيع استقز أهل موالاتنا الشنآن ، و أغرى من اصطنعناه و أنعمنا عليه الكفران ، فأتوا من حيث لا يحذرون ، و راموا من حيث لا ينصرون ، فكنا في الاستعانة بهم و التعويل عليهم كمن يستشفى من داء بداء ، و يفر من صل خبيث إلى حية صماد ، حتى بغت مكرهم ، و أعجل عن

(4) - الأدب في عصر دولة بني حماد 174

(5) - ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، 8: 102.103 ط: 6 دار الكتاب العربي بيروت .

● بنية النص النثري في الأدب الجزائري القديم

التلافي أمرهم، و يرد بال أمرهم إليهم، فعند ذلك اعتزلنا محلة الفتنة، و ملنا إلى مظنة الأمانة، و بعثنا في أحياء هلال نستنجد منهم أهل النجدة، و نستنفر من كنا نراه للمهم عدة، و أنتم في هذا الأمر أول من يليهم الخاطر، و تثنى عليه الخناصر». (6).

إن معالجة هذه الرسالة معالجة نقدية حديثة تستدعي الاعتماد على أدوات إجرائية تكشف عن جماليات هذا النص التراثي، و عن المثيرات الأسلوبية في حدود نظام لغوي خاص، و الوقوف على أهم مفاتيح مكونات هذا الخطاب للوصول إلى القيم الأسلوبية و الجمالية التي تقدمها هذه العناصر و المكونات.

## 1- خاصية التقابل و التشاكل :

تحدد هذه الخاصية من خلال علاقة الألفاظ بعضها ببعض ، و من خلال علاقة هذه الألفاظ بالنظام اللغوي للنص، فقد « ذهب هيالمساليق إلى أن الأسلوب يمكن أن يحدد من زاوية علاقة الألفاظ بالأشياء كما يحدد أيضا من خلال روابط الألفاظ بعضها ببعض، و كذلك من خلال علاقة مجموع الألفاظ بجملة الجهاز اللغوي الذي تنزل فيه، فالأسلوب في نفسه دال يستند إلى نظام إبلاغي متصل بعلم دلالات السياق ، أما مدلول ذلك الدال، فهو ما يحدث لدى القارئ من انفعالات جمالية تصحب إدراكه للرسالة » (7).

لقد استفاد ابن دفرير من هذه الخاصية في نصه الذي جمع بين ثنائيات متضادة، كالجمع بين انتصار عسكر عبد المؤمن، و فرار يحي بن عبد العزيز الحمادي، أو الجمع بين الشعور بالهزيمة و المرارة ، و الرغبة في الانتصار بطلب النجدة و العون من قبائل بني هلال و لعل هذا الجمع دال على ذلك التنازع النفسي وحدة المزاج و العصابية الذي عانى منه السلطان و كاتبه ابن دفرير ، لقد جاء هذا الجمع كـ « تفريغ لغوي صادق لمعاناة نفسية واقعية » (8) وليدل دلالة

(6)- العماد الأصفهاني 1973 خريدة القصر و جريدة العصر - قسم شعراء المغرب 1: 179، تج، محمد

المرزوقي، محمد العروسي المطوي، الجيلاني بن الحاج يحي- النشرة الثانية - الدار التونسية للنشر.

(7)- عبد السلام المسدي، 1983 النقد و الحداثة 59، ط 1 دار الطليعة، بيروت.

(8)- محمد العبد، 1989 اللغة و الإبداع الأدبي ، ط 1 دار الفكر للدراسات ، القاهرة

قوية على امتداد الصوت و شموله و اتساعه ، لينقل بصدق ذلك الشعور الذي يجمع الشمول و الاتساع، و من « الوجهة النفسية ينحصر الفعل اللغوي الأساسي في إعطاء قيمة رمزية للعلاقة » (9) . ويبدو أن دلالة الألفاظ على معاني متضادة تساعد المبدع على مراوغة اللغة لإبداع نصوص أدبية تثير الناقد و تحفزه على مقاربتها، فالنقاد العرب القدماء، على سبيل المثال، تتبعوا ذلك من خلال مدوناتهم. فلقد « أثار التقابل بين الدال و المدلول عند علماء اللغة العربية نشاطا لغويا لترصد بعض الظواهر » (10) كالترادف و الأضداد و المشترك اللفظي، و لا يمكن الوقوف عند هذه القضايا وقوفا ماثرا إلا من خلال السياق الأسلوبى الذي ترد فيه، فابن الأنباري قرن الألفاظ المتضادة بالاستعمال من خلال ذكره نصوصا استعملت فيها هذه الألفاظ . (11)

وقد نبه بعض الدارسين المحدثين على أهمية السياق الأسلوبى في العمل الأدبي إذ يقول « السياق الأسلوبى هو نموذج لسانی مقطوع بوساطة عنصر غير متوقع، التناقض الناتج عن هذا التداخل هو المنبه الأسلوبى... و تكمن القيمة الأسلوبية للتناقض، في نسق العلاقات الذي يعمل التناقض نفسه على إقامته بين عنصرين متضادين » (12)

لقد استطاع ابن دفرير أن يوظف الألفاظ توظيفا حسنا ليكشف عن قمة المعاناة كقوله: « استفز أهل موالتنا الشنآن، و أغرى من اصطنعناه و أنعمنا عليه الكفران، فأوتوا من حيث لا يحذرون ورموا من حيث لا ينصرون فكنا في الاستعانة بهم و التعويل عليهم كمن يستشفى من داء بداء » .

لقد استطاعت هذه الجمل أن توجه القارئ إلى جمالية هذا التعبير الذي على التقابل بين جمل متوالية في مقام أول، ثم على تقابل الألفاظ في تواليها ، في مقام ثان، فأنتج ذلك دلالة خاصة للنص على إبداع علاقات إسنادية جديدة، اعتمد فيها على التشبيه، و التي أدت إلى تواصل دلالي ناتج عن تواصل الكلمات ، الجمل. و مع ذلك فهل اختار الكاتب ألفاظه، أو أن سياق الحال فرض عليه معجما لغويا فرضا طوعيا .

(9)- قندريس. ج اللغة 36، تر: عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص- مكتبة الأنجلو المصرية

(10)- فائز الداية 1985 علم الدلالة العربي 77 ط 1، دار الفكر، دمشق

(11)- ابن الأنباري، الأضداد

(12)- ميكائيل ريفاتير معايير تحليل الأسلوب 56، ط 1 تر : حميد الحمداني، منشورات دار سال،

يبدو أن سياق الحال، و الموقف الإنساني الذي مر به الكاتب وجه ذلك الاختيار فجاء متماشيا و ذلك الموقف، و لعل هذا الأمر ، يعد من صميم الدراسة الأسلوبية ، « و إذا كانت الأسلوبية لا تهتم بالكلام الحي، بل بتفصيله النسيجي، و باللفظة المجردة التي هي في خدمة قدرة الفنان على التحكم و التطويع، فإن ذلك لا يسمح للكاتب بانتقاء ما يراه أكثر مناسبة و تعبيرية من غيره من الألفاظ ، لا سيما إذا ارتبط اللفظ المنتقى بحالة شعورية معينة، أو باصطلاحات مهنية خاصة ، أو بفئة إجتماعية ذات معجم مميز » (13).

ولعل هذا ما يميز الكلام العادي عن الإبداع ، و نص ابن دفرير، و إن كان تغلب عليه المباشرة و التقريرية ، نص مبدع مرتبط بعصره، و بظرف سياسي و اجتماعي خاصين، وهو نص له أسلوبه الخاص به، و « و الأسلوب هو اختيار الكاتب لما من شأنه أن يخرج بالعبارة عن حيادها وينقلها من درجتها الصفر إلى خطاب يتميز بنفسه، و هذا معناه أن الأسلوب رسالة أنشأتها شبكة من التوزيع قائمة على مبدأ الاحتمال و التوقع ». (14)

إن اختيار الكاتب ألفاظه، أنتج دلالات تقربنا إلى واقع النص الذي تشاكلت ألفاظه، و جملة لتضفي على المعنى جلالا وجمالا ،كقوله على سبيل المثال: «...فعند ذلك اعتزلنا محلة الفتنة، و ملنا إلى مظنة الأمانة، و بعثنا في أحياء هلال نستنجد منهم أهل النجدة، و نستنفر من كنا نراه للمهم عدة، و أنتم في هذا الأمر أول من يليهم الخاطر، و تثنى عليه الخناصر». فجاء هذا النسق اللغوي ليؤكد على المعنى الذي أراده الكاتب، على الرغم من أن اللفظ يمكن أن ينصرف إلى أكثر من دلالة لعدم تقيده بسياق واحد إلا أنه، ههنا، قد جاء مقيدا بضرورة إثراء النص، فالأفعال اعتزلنا، ملنا، بعثنا، نستنجد تشاكلت لتسهم في بناء النص بناء يتماشى، و طبيعة الموضوع، و الظرف السياسي، ثم تشاكلت مع ما يليها من ألفاظ لترسم واقع النص.

(13)- اللغة و الإبداع الأدبي، 207

(14)- النقد و الحداثة، 58

## 2- في البنية اللغوية للنص :

لقد جاء بنية النص اللغوية بنية تقليدية أخذت من خصائص النص القديم الفنية والجمالية وفق أنساق اعتمدت ألفاظا بسيطة سهلة غير مستعصية على الفهم. وقد جاءت هذه البنية في جمل إسمية، و جمل فعلية، ومع تفاوت نسبي بينها. وقد قلت الجمل الاسمية، و التي تدل على الثبات والسكون مقابل الجمل الفعلية التي تعني الحركة والفعالية.

### - البنية الفعلية للنص :

لقد غلبت على هذا النص البنية الفعلية، فكانت أغلب جملته جملا فعلية، تدل على الحركة و الحيوية و الفعالية، لترصد الحدث و تساهم في رسم حيز النص و لحمته. وقد أكثر الكاتب من استعمال الأفعال الثلاثية ليعبر عن ديمومة الحدث و حركته، و يعكس نوعا من الرضى و الاستسلام، و قبول ما وقع بأسى و تحسر.

لقد أدت جمل النص الفعلية إلى تماسكه هذا من خلال علاقات الجمل الإسنادية لتدل دلالة طردية بين الحركات ، حيث تكون الحركة السابقة و الأفعال ترسم لنا الخط الرأسي التصاعدي . يقول ابن دفرير: فإنه لما أراد الله أن يقع ما وقع لقبج أثار من خان في دولتنا و ضبع(\*)، استفز أهل موالاتنا الشنآن(\*\*) و أغرى من اصطنعاه و أنعمنا عليه الكفران ، فأوتوا من حيث لا يحذرون ، و رموا من حيث لا ينصرون».

وهكذا نجد الجمل الفعلية تتوارد و تتوالى ، وقد توزعت بين جمل في زمن الماضي، و جمل في زمن الحاضر أو المستقبل، لتؤكد على الحركة التي قد تتطلع إلى الثورة و التغيير و التجدد، و بذلك ابتعد عن الحياء، فحدد موقفا مما حدث، فطغت الحركة على السكون ، لتعبر عن طلب النجدة من قبائل بني هلال « و بعثنا في أحياء بني هلال نستنجد منهم أهل النجدة، ونستنفر

(\*)- ضبع: جار و ظلم أو مد يده للصلح مع العدو

(\*\*) - الشنآن: المقت و البغض

من كنا نراه للمهم عدة».

إن هذه الجمل الفعلية مدت النص بجمالية خاصة تعتمد على الإنسجام والتوافق، و يصبح ما ذكره عبد الملك مرتاض في نص "أين ليلاي" مهما في هذا المجال. يقول: «و الذي أفضى إلى هذا الانسجام في النظام التركيبي لهذا النص تتابع ملفوظات تكاد أن تستميز بالخصائص الإيقاعية نفسها في تشكيلات... حيث إن كل تشكيلية تتخذ لها نظاما تركيبيا يقرب أجزاءها . بعضها من بعض من وجهة ، و لا يجعلها تنأى، في تركيبها العامة عن التشكيلات الأخريات من وجهة أخرى». (15) و يبدو أن هذه الخصائص هي نفسها خصائص ابن دفرير الذي جاء نصح خفيفا مؤديا للغرض المنوط به، و جاء ذلك عن طريق اختيار المؤلف للألفاظ التي كونت لحمة هذا النص و انسجامه من خلال السياق الذي وردت فيه» إن معنى الألفاظ المفردة غالبا ما يكون عاما و غامضا ، و يتلاشى هذا الغموض في معاني الألفاظ المفردة إذا دخل اللفظ في ضمام تركيبية تحدد معناه و تخصصه. و من هنا يتولد من المعنى المعجمي للفظ معنى آخر . (16)

إن البنية الفعلية لهذا النص استفادت من بلاغية الألفاظ : حيث استعملت استعمالا مجازيا ، فانزاحت الجمل عن معانيها الحقيقية لتساهم في رسم جمالية هذا النص، وقد وفق الكاتب إيما توفيق في إيراد ألفاظ بحمولات معرفية تعكس موقفه، و موقف السلطان يحيى بن عبد العزيز ، مما حدث ، و تجعل القارئ يلتفت إلى ما حدث ووقع بكثير من التعاطف كقوله: "...فكنا في الاستعانة بهم و التعويل عليهم كمن يستشفى من داء بداء، و يفر من صل خبيث إلى حية صماد، حتى بغت مكرهم، و أعجل عن التلاقي أمرهم، و يرد بال أمرهم، فعند ذلك اعتزلنا محلة الفتنة، و ملنا إلى مظنة الأمانة .» . لقد عكس هذا النسق اللغوي عدول الألفاظ عن معانيها الحقيقية، و قد اعتمد على البنية الفعلية في ذلك، و التي حققت تواصلا دلاليا بين الكلمات و الجمل، عن طريق إيجاد علاقات جديدة بين الألفاظ، و عن طريق البدء بالفعل الماضي، ثم الانتقال

(15)- عبد الملك مرتاض. 1992 أين ليلاي، 70. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر

(16)- اللغة و الإبداع الأدبي، ص 35



إلى الفعل المضارع لاستحضار الحدث و التأكيد عليه، و لصنع المقابلة بين الأزمنة، بين زمن الفعل الماضي، و زمن الفعل المضارع، لإثارة القارئ ليتفاعل مع النص من الداخل ، ففي الواقع «...هناك قراءتان : قراءة الناقد و القارئ طبعاً ، و قراءة النص التي يخلقها النص، يعني النص نفسه يفتح فضاء أو لا يفتح» (17) و يبدو أن هذا النص قد فتح فضاء خاصاً، و دعا إلى قراءة تنبع من داخله و تفترض الإنطلاق من سياقه التاريخي و الاجتماعي و السياسي، إلا أن هذا الانفتاح ظل محدوداً لطبيعة الموضوع و تقييده بالظرف الزمني فجاء راصداً للحوادث طارحاً لموقف الكاتب و سلطانه مما وقع و حدث، فأوجد سياقاً خاصاً به قد يتقاطع مع سياقات مشابهة له، فالحوادث التاريخية كثيراً ما تتشابه.

### 3- بنية النص الدلالية :

يرتكز نص ابن دفرير على فكرة محورية تقوم على تحديد موقف مما وقع لأخذ العبرة و العظة، فرصدت لذلك مجموعة من الكلمات ترتبط دلالياً لتعبير تعبيراً صادقاً عن الأسى و الحزن و الأسف.

و الواقع أننا لا نستطيع أن ندرك كلمة من كلمات هذا النص إلا ضمن مجموع الكلمات المتصلة بها دلالياً أو كما يقول ليونس LYONS « يجب دراسة العلاقات بين المفردات داخل الحقل أو الموضوع الفرعي » (18) و بهذا أسهمت في بناء حقل دلالي خاص بهذا النص، والذي يمكن أن يحيل إلى نصوص أخرى. مشابهة من الأدب الحمادي، وقد تتقاطع مع نصوص من الأدب العربية: ذلك أن الحوادث متشابهة، و المواقف منها أيضاً متشابهة.

لقد اعتمد هذا النص على علائق إسنادية نهلت من خصائص اللغة العربية الإبداعية من خلال إيجاد علاقة طردية بين الكلمات المكونة لهذا النص، و التي تجسد حقلاً دلالياً ، فالحقل الدلالي هو مجموعة من المفاهيم تنبني على علائق لسانية مشتركة، و يمكن لها أن تكون بنية من بنى النظام اللساني. (19)

(17)- عز الدين المناصرة و آخرون، ندوة العلوم الإنسانية و القراءات 11، مجلة كتابات معاصرة-

المجلد الرابع، العدد 15، أيلول 1992، بيروت.

(18)- أحمد مختار عمر 1988، علم الدلالة ، 80 عالم الكتب، القاهرة، عن 14 THEORY OF MEANING

(19)- ينظر: GEORGE MOUNIN CHEFS POUR LA LINGUISTIQUE P 160, PARIS SEGHER 1971

فلا شك أن هناك علاقة لا انفصام لها بين الكلمات المكونة لهذا النص. فلو أخذنا، على سبيل المثال، قوله: «...فعند ذلك اعتزلنا محلة الفتنة، و صلنا إلى مظنة الأمانة، وبعثنا في إحياء هلال نستنجد منهم أهل النجدة، و نستنفر من كنا نراه للهمم عدة» لوجدناه حقلا جزئيا ينضوي تحت الحقل الكبير للنص، ولو جدنا أيضا أن النسق اللغوي قد استخدم ألفاظا من مثل ( اعتزل ، مال، بعث، استنجد) و ربط هذه الألفاظ بكلمات أخرى كقوله: «الفتنة: مظنة الأمانة، أهل النجدة، عدة ... و بهذا فقد أسهمت كل هذه المداخل المعجمية في رسم الحقل الدلالي الخاص بها، والذي هو جزء من الحقل الدلالي العام، و يبدو » أن تصور الحقول الدلالية التي تكون نظاما لسانيا ما، يختلف من باحث إلى آخر، و ما ذلك إلا لأن تحديد الحقل يخضع خضوعا إلزاميا لذاتية الباحث نفسه دون تدخل أي عامل موضوعي أو لساني بحث «(20). ولعل هذا التحديد متعلق بالناحية النظرية.

أما من الناحية التطبيقية، فإن تحديد الحقل يرتبط ارتباطا وثيقا بالسياق الذي يجمع هذه الألفاظ أو تلك في حقل دلالي معين، أو يرصدها في حقل دلالي آخر.

و ربما يخضع هذا الأمر للاستعمال و الإبداع اللذين يجيزان هذه العملية عن طريق العلائق الإسنادية التي يوجدها، لأن هناك مقاييس موضوعية(21) تساهم في ضبط الحقل الدلالي.

إن البنية الدلالية لهذا النص تستمد حضورها من الخطاب السياسي السلطوي الذي فرض نفسه على الخطاب الحمادي في ذلك العصر، و تندرج هذه البنية في السياق الفكري و الثقافي للدولة الحمادية مشكلة بنية مفرداتية للخطاب، والتي توزعت على المحاور التالية :

أ- ألفاظ دالة على الله تعالى، أو على صفة من صفاته : الله، شاء، القسم و القدر و الجزاء

ب- ألفاظ دالة على الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو على صفة من صفاته: النبي، محمد، خير البشر.

ج - ألفاظ دالة على الانسان أو على فعل من أفعاله، و هي أغلب الألفاظ التي جاءت بعد حمد الله و الصلاة على رسوله من مثل خان، ضيع، أهل موالاتنا، أغرى، الاستعانة، المكر.... الخ ■

(20)- أحمد حساني 1994 مباحث في اللسانيات، ص 164 ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر.

(21)- الموجع نفسه 164 و ما بعدها.